# مَدْخَل إلى الدّراسَة

حمداً لله ، وصلاة وسلاما على رسوله الكريم وعلى آله وصحابته والتابعين ، وبعد فإن هذا البحث محاولة لدراسة شخصية علمية فذة استطاعت أن تجعل لها مذاقا خاصاً ، وأن تكون لها ذاتية متفردة بين علماء البلاغة والنقد العرب إلى جانب نشاطها الفنى والعلمى فى مجالات أخرى متعددة . وهى – مع ذلك – شخصية مازالت – بالرغم من المحاولات المخلصة التى بذلت وتبذل – لم تنل ما تستحقه من عناية ، ولم توضع فى حاق موضعها بين أعلام الفكر العظام الذين أنجبت بهم حضارتنا الاسلامية العظيمة .

وشخصية حازم القرطاجنى ذات جوانب متعددة كلها جدير بالبحث والدراسة وقد كان بعض جوانبها موضوعاً لدراسات جادة سبقت هذه المحاولة وأنارت لها الطريق . ولكن هذه الدراسة ستحاول أن تتناوله من زوايا هامة وطريفة يقتضينا بيان أهميتها وطرافتها أن نعرض لما سبقها من جهود (١) ، وأن نحدد فى ضوء هذا العرض زاوية الدراسة ، ومدى ما فيها من اضافة لفكرتنا عن حازم .

لعل من أوائل الدراسات التى استيقظت نظر الباحثين فى مصر ، وعرفتهم بشخصية حازم القرطاجنى دراسة الاستاذ الدكتور محمد مهدى علام التى نشرها على عددين من أعداد حولية كلية الآداب بجامعة

---

(١) لا يشمل هذا العرض – بطبيعة الحال – المصادر القديمة التى وردت فيها ترجمة لحازم أو تعريف ببعض جهوده العلمية .

عين شمس : تناول فى الجزء الذى نشر بالعدد الأول (١) التعريف بهذا الشاعر العظيم المنسى ، وعرض لنشأته فى الأندلس ،وهجرته إلى المغرب ، وبما صنفه أو نسب اليه من مؤلفات ، وقد حاولت هذه الدراسة تكوين صورة واضحة القسمات لحياة هذا العالم الشاعر ، وجعلت من التعريف به مدخلا لدراسة فن المقصورة فى الأدب العربى ، ووضعت حازما فى موضعه الحق من شعراء المقاصير . وخصص الجزء الثانى من هذه الدراسة للتحقيق العلمى لمقصورة حازم (٢) .

وثمة دراسة أخرى مختصرة قام بها الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى جاءت بمثابة مقدمة لنشر المنهج الثالث من القسم الثانى من كتاب حازم « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » أشار فيها اشارة عامة إلى التأثير الأرسطى على حازم فى ميدان البلاغة والشعر (٣) مقررا فيها «أن حازما القرطاجنى هو أول من أدخل نظريات أرسطو فى كتب البلاغة العربية الخالصة ، فلا عبد القاهر فى « دلائل الاعجاز » و« وأسرار البلاغة » ولا الشهاب الخفاجى فى « سر الفصاحة » ، ولا السكاكى فى « مفتاح العلوم » ولا ابن رشيق فى « العمدة » قد تعرض لهذه النظريات وإن كانت لا تخلو من أثر أرسطو . وفى هذا فضل عظيم لحازم القرطاجنى يدل على سعة أفقه العلمى ومدى فهمه الدقيق لأسرار البلاغة » (٤) .

---

( ١ ) عنوان هذا الجزء : «أبو الحسن حازم القرطاجنى وفن المقصورة فى الأدب العربى »الحولية ، مايو ١٩٥١ ، ١-٣١ .

( ٢ ) حولية آداب عين شمس ، ١٩٥٣ - ١٩٥٤ ، ١ - ١٠١

( ٣ ) عنوان الدراسة والتحقيق : « حازم القرطاجنى ونظرية أرسطو فى البلاغة والشعر » وقد نشرت فى كتاب « إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين » ٨٥ - ١٤٦ .

( ٤ ) السابق : ٨٧-٨٨ وفى هذا الرأى تعميم دون مسوغ كما سيتضح فيما بعد

وثمة كتابان آخران يتصلان بحازم : أولهما تحقيق علمى لما وجد من كتاب حازم « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » قام به الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة ، ونال به اجازة الدكتوراه من جامعة باريس . وفى مدخله إلى التحقيق قدم ترجمة لحياة حازم والظروف المختلفة التى اكتنفتها ، وتعريفا بمصنفاته ، وأشار اشارة سريعة لمنزلة كتابه بين كتب البلاغة العربية (١) مع تحليل عام للكتاب من حيث منهجه وما اشتمل عليه من موضوعات ، وثانى الكتابين تحقيق لمجموعة من قصائد حازم تحت عنوان « ديوان حازم القرطاجنى » (٢) قام به الأستاذ عثمان الكعاك ، وصدره بترجمة سريعة لحازم ، واشارة عامة لمصنفاته وأورد مثالا من كتاب المنهاج من القسم الذى نشره الدكتور بدوى .

هذه هى أشهر الدراسات التى وقعنا (٣) عليها وهى أهمها فيما نعلم . أما هذه الدراسة فقد حاولت أن تقدم صورة لحازم تلم بجانبين متكاملين من شخصيته :

أولهما يشمل حياته فى الأندلس وهجرته إلى المغرب ، وجهوده

---

(١) مدخل المنهاج : ١١٧ — ١١٨ .

(٢) نشرته دار الثقافة فى بيروت ١٩٦٤

(٣) تشير المراجع التى بين أيدينا إلى دراسة هامة أخرى قام بها المستشرق الأسبانى اميليو جارسيا جومس E. Garcia Gomez اهتم فيها بدراسة المعلومات الجغرافية والتاريخية التى انفردت بها المقصورة . وقد نشرت فى : AL – Andalus ، 1933, pp. 18 – 103 : لم يتيسر لنا الرجوع اليها ، والموضوع الذى نعالجه على أية حال يمثل زاوية مخالفة . ( وانظر عن دراسة جومس مدخل المنهاج ٢٨٥ ) كما أن ثمة دراسة للدكتور شكرى عياد لم نذكرها هنا بالرغم من أهميتها الكبيرة ناقشناها طويلا فيما بعد . وقد استبعدنا دراسات أخرى أشارت إلى حازم إشارات عامة أوتشتمل على آراء ونظرات سريعة .

الشعرية ، والنحوية ، والبلاغية ، ونظرا لقلة ما ورد لنا من أخبار عن حياته الخاصة فقد اتجهت الدراسة فى هذا الجانب إلى شعره تحاول أن تلتمس فيه شيئا من ملامح نفسيته وهموم روحه تهدينا إلى التعرف على حازم من باطن وهى محاولة نرجو أن تكون الدراسة قد وفقت فيها . أما ثانى الجانبين فقد تغيا بيان المصادر التى شكلت شخصيته البلاغية والنقدية بوجه خاص وهى أبرز ما نعرف عن حازم . ولقد أُمْحضَ هذا الجانب للكلام على نظرية هامة يقوم عليها فكره النقدى فى ميدان نقد الشعر ، وهى نظريته فى المحاكاة والتخييل كما يوضحها كتابه « المنهاج » . وإذا علمنا أن كتابه هذا هو الكتاب الوحيد الذى وصلنا شبه كامل لحازم ، وانه أخطر ما نعرف من كتب لحازم على الاطلاق بل لا نعد مغالين إذا قلنا إنه من أخطر الآثار العربية القديمة فى النقد عامة ، وفى نقد الشعر خاصة ، وإذا علمنا أيضا أن نظرية المحاكاة والتخييل هى أُس هذا الكتاب وعمدته أدركنا إلى أى مدى تصل أهمية دراسة هذه النظرية وأصولها عند حازم . وقد جعلت هذه الدراسة مدارسة تلك النظرية الفلسفية فى أصولها نافذة تطل منها على مصادر فكره النقدى المتأثر بفلسفة أرسطو اليونانية وكتب الفلاسفة المسلمين : الفارابى وابن سينا وابن رشد ، وعلى تطبيقه أفكارهم الفلسفية على الشعر محاولا بذلك أن يسد الفجوة التى قامت بين الفلاسفة والبلاغيين فى دراسة الشعر ونقده ، هذه الفجوة التى حرمت النقد الأدبى العربى — فى رأينا — من روافد ثقافية كانت جديرة بافادته وتطويره . وتتجلى عبقرية حازم فى قيامه بهذا الدور المتفرد ، فقد تعقَّل الفلسفة ومباحثها ، وضرب

بسهم وافر فى الدراسات العقلية ، وأسعفته موهبته الشعرية واهتمامه الأصيل بالأدب فكان أول بلاغى وناقد عربى ينظر إلى الشعر نظرة نفاذة وبارعة يسندها نصيب كبير من الذوق المرهف والعقل المثقف.

ويتبين لنا من هذا العرض أن الدراسة لم تقف عند حدود الترجمة لحازم ، فليست أخباره من الكثرة ولا الآراء فيها من الاختلاف بحيث تكون موضوعا للاجتهاد والترجيح ، ولم تتناول تكوينه الثقافى والعلمى فحسب بل انها أضافت لهذين الأمرين محاولة للتعرف على نفسية حازم من شعره ، وبيانا لما تعتقد أنه جوهر العطاء الخصب الذى منحه حازم للدراسات الأدبية العربية ، فحاولت أن تتصل اتصالا مباشرا بكتاب « فن الشعر » لأرسطو وترجمته وشروحه الاسلامية ؛ وبكتاب أرسطو فى الخطابة ، وآرائه فى « النفس » وترجمتها عند المسلمين ، ونظريات المسلمين فى النفس عامة والقوى النفسانية خاصة ، وكذلك بكتاب « منهاج البلغاء » لحازم باعتبار هذه جميعا مصادر لعلاج الفكر الحازمى علاجاً دقيقاً . واتبعت الدراسة فى هذا كله منهجا مقارناً تظهر به أوجه التأثير والتأثر بين الأفكار الأرسطية ، ونظائرها فى الفكر الاسلامى الفلسفى ، والفكرى النقدى العربى ، كما تظهر به ملامح الشخصية العلمية لحازم القرطاجنى الذى هو موضوع هذه الدراسة.

وقد جاءت هذه الدراسة فى ثلاثة فصول وخاتمة ، تناول أولها دراسة حياة حازم وظروف عصره التاريخية والثقافية فى الأندلس والمغرب ، ودراسة عن شعر حازم تتضمن محاولة استكشاف ملامح نفسيته من شعره ، وتعريفا بجهوده فى النحو والبلاغة . وتناول ثانيها دراسة نظرية المحاكاة فى الشعر عند حازم ومصادرها الفلسفية . وتناول ثالثها دراسة نظرية التخييل فى

الشعر عند حازم ومصادرها الفلسفية. وأما الخاتمة فقد جردت لاثبات خلاصة مركزة لأهم ما ناقشت الدراسة من قضايا ، وما توصلت إليه من نتائج ، وما استيقظ نظريا من مشكلات فى الفكر الإسلامى لم تنل حقها من الدراسة بالرغم من أنها جديرة بصرف العناية اليها كفاء ما تقدمه لنا من معرفة بتراثنا ، وثقة بحضارتنا ، وايمان بدورنا العظيم فى تقدم الانسانية واستشرافها للحق والخير.

وقد شجعنى تقدير أعضاء لجنة الأدب فى مجمع اللغة العربية الموقر — وهم من صفوة أعلام الفكر والأدب العربى — لهذه الدراسة وما شملوها به من ثناء طيب فى تقريراتهم التى رشحتها للجائزة الأولى فى المسابقة الأدبية لعام ١٩٧٠ على الإقدام على نشرها . ولكنى حين أزمعت القيام بالنشر لم أجد بُدا من مراجعة كثير من المسائل بتفصيل القول فى بعض وإجماله فى بعض ، واستكمال القول فى أمور كان لابد من بيانها لكمال المعالجة ، وإعادة صياغة عدد من الفقرات على نحو يجعلها أكثر وفاء بغرضها ، وأفصح فى العبارة عن مضمونها حتى إن صورة البحث قد اختلفت اختلافا كبيرا عما كانت عليه عند تقديمه لمسابقة المجمع الموقر وإن ظل محتفظا بأفكاره الأساسية وخطوطه الرئيسة كما كانت عند إعداده أول مرة .

ولا يفوتنى فى هذه المقدمة أن أزجى شكرى خالصا لعدد من أساتذتى وزملائى لما تفضلوا به من قراءة مسودة الدراسة وما أشاروا به من اقتراحات كان لها أثرها الكبير فى إظهار البحث على هذه الصورة. وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور عبد الحكيم حسان استاذ النقد الأدبى والأدب المقارن والدكتور حسن الشافعى والدكتور على عشرى زايد الأستاذان بكلية دار العلوم والدكتور عبدالله الغذامى الأستاذ بكلية الاداب جامعة الملك عبدالعزيز.

ونسأل الله تعالى أن يجبرنا عثرات الطريق إنه سبحانه ولى التوفيق ،

**سعد مصلوح**